# سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا

يجيئـون ،
ابوابنا البحر . فاجأنا مطر ، لا اله سوى الله .
فاجأنا مطر ورصاص . هنا الارض سجّادة ، والحقائب غربـــه ! .
يجيئـون ،
فلتترجّل كواكب تأتي بلا موعد . والظهور التي استندت للخناجـر مضطرة للسقوط .
ومـاذا حدث ؟
أنت لا تعرف اليوم . لا لون ، لا صوت . لا طعم .
لا شكل ... يولد سرحان ، يكبر سرحان ، يشرب خمراويسكر . يرسم قاتله ، ويمزّق صورته . ثم يقتله حين يأخذ شكلا اخيرا .
ويرتاح سرحـان .
سرحـان ! هل أنت قاتل ؟
ويكتب سرحان شيئا على كمّ معطفه ، ثم تهرب
ذاكرة من ملفّ الجريمة .. تهرب .. تأخذ منقارطائر .
وتأكل حبة قمح بمرج بن عامر .
وسرحان متّهم بالسكوت ، وسرحان قاتل .

* * *

وما كان حبًّا
يدان تقولان شيئا ، وتنطفئان .
قيود تلـد
سجون تلد
مناف تلـد .
وتلتفّ باسمك ،
ما كـان حبًّا
يدان تقولان شيئا .. وتنطفئان .
ونعرف ، كنّا شعوبا ، وصرنا حجاره
ونعرف ، كنت بلادا وصرت دخان
ونعرف اشياء أكثر
نعرف ، لكنّ كل القيود القديمه
تصير اساور ورد
تصير بكـاره
في المنافي الجديده .
وتلتفّ باسمك
ما كان حبًّا
يدان تقولان شيئا وتنطفئان .
وسرحان يكذب حين يقول رضعت حليبك ،
سرحان من نسل تذكرة ، وتربّى بمطبخ باخرة لم تلامس مياهك . ماسمك ؟
ـ نسيـت .
وما اسم ابيـك ؟
ـ نسيـت .
وامـك ؟
ـ نسيـت .
وهل نمتَ ليلة أمس ؟
ـ لقد نمتُ دهـرا .
حلمـت ؟
ـ كثيرا .
بمـاذا ؟
ـ بأشياء لم أرها في حياتي .
وصاح بهـم فجـأة :
ـ لماذا أكلتم خضاراً مهرّبة من حقول اريحا ؟
ـ لماذا شربتم زيوتا مهربة من جراح المسيح ؟
وسرحان متّهم بالشذوذ عن القاعدة

* * *

راينا اصابعه تستفيث . وكان يقيس السماء بأغلاله .
زرقة البحر يزجرها الشرطيّ ، يعاونه خادم آسيويّ .
بلا تغيّر سكانها ، والنجوم حصى .
وكان يغني : مضى جيلنا وانقضى .
مضى جيلنا وانقضى .
وتناسل فينا الفزاة . تكاثر فينا الطفاة . دم كالمياه ،
وليس تجفّفه غير صورة غم وقبعة الشرطيّ وخادمه الاسيوي . وكان يقيس الزمان بأغلاله .
سألناه : سرحان عمّ تساءلت .
قال : اذهبوا . فذهبنا .
الى الامهات اللواتي تزوّجن اعداءنا .
وكنّ ينادين شيئا شبيها باسمائنا .
فيأتي الصدى حرسا .
ينادين قمحا .
فيأتي الصدى حرسا .
ينادين عـدلا
فيأتي الصدى حرسا .
ينادين يافا
فيأتي الصدى حرسا .
ومن يومها ، كفّت الامهات عن الصلوات ، وصرنا نقيس السماء بأغلالنا .
وسرحان يضحك في مطبخ الباخره .
يعانق سائحة ، والطريق بعيد عن القدس والناصره
وسرحان متّهم بالضياع وبالعدميّه .

* * *

وكلّ البلاد بعيده .
شوارع اخرى اختفت من مدينته ( اخبرته الاغاني وعزلته ليلة العيد انّ له غرفة في مكان ) .
ورائحة البنّ جغرافيا .
وما شرّدوك .. وما قتلوك .
ابوك احتمى بالنصوص ، وجاء اللصوص .
ولست شريدا ... ولست شهيدا . وأمك باعت ضفائرها للسنابل والامنيات : اوفوق سواعدنا فارس لا يسلّم ( وشم عميق ) . وفوق اصابعنا كرمة لا تهاجر ( وشـم عميق ) .
خطى الشهداء تبيد الغزاة
( نشيد قديم )
ونافذتان على البحر يا وطني تحذفان المنافي .. وارجع

( حلم قديم ـ جديد )

شوارع اخرى اختفت من مدينته ( اخبرته الاغاني
وعزلته ليلة العيد ان له غرفة في مكان ) .
ورائحة البنّ يد .
ورائحة البن صوت ينادي .. ويأخذ ..
رائحة البن صوت ومئذنة ( ذات يوم تعود ) .
ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب . ينكمش
الماء يوما ويبقى الصدى .
وسرحان يحمل ارصفة ونوادي ومكتب حجز
التذاكر . سرحان يعرف اكثر من لغة وفتاة . ويحمل
تأشيرة لدخول المحيط وتأشيرة للخروج . ولكن سرحان
قطرة دم تفتش عن جبهة نزفتها .. وسرحان قطرة دم
تفتش عن جثة نسيتها . وأين ؟
ولست شريدا .. ولست شهيدا .
ورائحة البن جغرافيا
وسرحان يشرب قهوته ..
ويضيع .

* * *

هنا القدس .
يا امرأة من حليب البلابل ، كيف اعانق ظلّي ..
وابقى ؟
خلقت هنا .. وتنام هناك .
مدينته لا تنام . وأسماؤها لا تدوم . بيوت تغيّر
سكانها . والنجوم حصى .
وخمس نوافذ اخرى ، وعشر نوافذ اخرى تغادر
حائط .
وتسكن ذاكرة .. والسفينة تمضي .
وسرحان يرسم شكلا ويحذفه : طائرات ورب قديم
ونابالم يحرق وجهاونافذة .. ويؤلف دوله .
هنا القدس .
يا امرأة من حليب البلابل ، كيف اعانق ظلي ...
وأبقى ؟
ولا ظلّ للغرباء .
مساء يرافقهم ، والمساء بعيد عن الامهات قريب من
الذكريات . وسرحان لا يقرأ الصحف العربية .. لا يعرف
المهرجانات والتوصيات . فكيف اذن جاءه الحزن ...
كيف تقيّأ ؟
وما القدس والمدن الضائعه
سوى منبر للخطابه .
الى السلطة الجائعه .
وما القدس والمدن الضائعه
سوى منبر للخطابه .
ومستودع للكآبه .
وما القدس الا زجاجة خمر وصندوق تبغ ..
... ولكنها وطني .
من الصعب ان تعزلوا
عصير الفواكه عن كريات دمي ،
ولكنها وطني
من الصعب ان تجدوا فارقا واحدا
بين حقل الذره
وبين تجاعيد كفّي
ولكنها وطني ..
لا فوارق بين المساء الذي يسكن الذاكره
وبين المساء الذي يسكن الكرملا
ولكنها وطني .
في الحقيقة والدم متّسع للجميع ..
وخط الطباشير لا يكسر المطر المقبلا
هنا القدس ..
كيف تعانق حريتي ـ في الاغاني عبوديتي .
وسرحان يرسم صدرا ويسكنه .
وسرحان يبكي بلا ثمن ووسام
ويشرب قهوته .. ويضيع .

* * *

يمزق غيما ، ويرسله في اتجاه الرياح . وماذا ؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة . لا بدّ من تربة صالحه .
أتذهب صيحاتنا عبثا ؟
اكلت .. شربت .. ونمت . حلمت كثيرا . افقت
تعلمت تصريف فعل جديد . هل الفعل معنى بآنية
الصوت .. أم حركه ؟
وتكتب ض.ظ.ق.ص.ع. وتهرب منها ، لان
هدير المحيطات فيها ولا شيء فيها . ضجيج الفراغ
حروف تميزنا عن سوانا ـ طلعنا عليهم طلوع المنون ـ
فكانوا هباء وكانوا صدى . صدى نحن هم يحرثون طفولتنا
تجهض الرعد . نقصفهم بالحروف السمينة : ض.ظ.ص.
تجهض الرعد . نقصفهم بالحروف السمينة : ض.ظ.ص.
ق.ع. تم نقول انتصرنا . وما الارض ؟ ما قيمة الارض ؟
اتربه ووحول . نقاتل او لا نقاتل ؟ ليس مهما سؤالك ما
دامت الثورة العربية محفوظة في الاناشيد والعيد والبنك
والبرلمان .
وتعرف ان الغزاة عصيّ بأيدي المماليك . تكتب ض.
ظ.ق.ص.ع.
تمزق غيما وترسله في اتجاه الرياح . وماذا ؟ هنالك
غير شديد الخصوبة . لا بد من تربة صالحه .
وتمضي السفينة . تبقى غريبا . جراحك مطبعة
للبلاغات والتوصيات . وباسمك تنتصر الابجدية ، باسمك
يجلس عيسى الى مكتب ويوقع صفقة خمر واقمشة .
ويحيي العساكر باسمك . باسمك تحفظ في خيمة وتعلّب في
خيمة . لا هوية الا الخيام . اذا احترقت .. ضاع منك
الوطن .
وباسمك اسماء تأتي وتذهب . باسمك حطّين تصبح
مزرعة للحشيش ، وثوّارك السابقون سعاة بريد . وباسمك
لا شيء . يأتي القضاة ، يقولون للطين كن جبلا شامخا
فيكون . ويقولون للترعة انتفخي انهرا فتكون
وتكتب ض.ظ.ص.ع.ق.
تمزّق غيما وترسله في اتجاه الرياح . وماذا ؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة . لا بدّ من تربة صالحه .
أتذهب صيحاتنا عبثا ؟
وليست خيامك ورد الرياح . وليست مظلات شاطىء .
تدجّج بأعمدة الخيمة . احترقي يا هويّتنا ـ صاح لاجيء

**محمود درويش**

ـ التتمة على الصفحة ـ ٨٢ ـ

# سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٣ ـ

وسرحان يشرب قهوته. للجليل مزايا كثيرة .
ويحلم ، يحلم ، يحلم .. آه ـ الجليل !

* * *

ومن كفّ يوما عن الاحتراق
أعار أصابعه للضمـاد
وصرح للصحفيّ وللعدسات :
جريح أنا يا رفاق
ونال وساما .. وعاد .
وسرحـان ،
ما قال جرحي قنديل زيت وما قال ..
صدري شبّاك بيت وما قال .
جلدي سجادة للوطن .
وما قال شيئا .
أتذهب صيحاتنا عبثا ؟
كل يوم نموت ، وتحترق الخطوات وتولـد عنقـاء
ناقصة ، ثم نحيا لنقتل ثانية .
يابلادي ، نجيئك اسرى وقتلى .
وسرحان كان أسير الحروب ، وكان اسير السلام .
على حائط السّبي يقرأ أنباء ثورته خلف ساق مفتّية ،
والحياة طبيعية ، والخضار مهرّبة من جباه العبيد الى
الخطباء . وما الفرق بين الحجارة والشهداء ؟
وسرحان كان طعام الحروب ، وكان طعـام السلام .
على حائط السبي تعرض جثته للمزاد . وفي المهجـر
العربي يقولون : ما الفرق بين الغزاة وبين الطغـاة ؟
وسرحان كان قتيـل الحروب ، وكان قتيل السلام .
على حائط السّبي يصطدم العلم الوطني بأحذية الحرس
الملكي . وحربك حربان . حربك حربان .
سرحان ! لا شيء يبقى ، ولاشيء يمضي . اغتربت ..
لجأت .. عرفت . ولست شريدا ولست شهيدا . خيامك
طارت شراره .
وفي الريح متّسع
ـ هل قتلت ؟
ويسكت سرحان . يشرب قهوتـه ويضيع . ويرسـم
خارطة لا حدود لها . ويقيس الحقول بأغلاله .
ـ هل قتلت ؟
وسرحان لا يتكلم . يرسم صورة قاتلـه من جديـد ،
يمزّقها ، ثم يقتلها حين تأخذ شكلا اخيرا ...
ـ قتلـت ؟
ويكتب سرحان شيئا على كمّ معطفـه ، ثـم تهـرب
ذاكرة من ملفّ الجريمة .. تهرب .. تأخذ منقار طائر .
وتزرع قطرة دم بمرج بن عامر .

---

اللغة الجديدة . فاللغة ، في صورتها الحية النامية ، لا تتكون من افعال واسماء وصيغ لغاية الافهام والاتصال وحسب ، بل من اجل تغيير وظيفتها ايضا ، وجعلها وسيلة للتعامل الواعي مع المجتمع من اجل تفجيره وتغييره . فالى جانب كون الكلمة في اللغة ، وحـدة لغوية ، الا انها ينبغي ان تكون في الوقت نفسه ، صيغة لتحويـل الكلام الى فعل بكلمات .

ولكن : ثمة من يعترض قائلا ان ليس بالامكان خلق مثل هذه اللغة الجديدة ، في مجالات الاداء والتعبير الفني ، لان اللغة ليست «فعلا» على حد تعبيرهم . وهم بذلك يفصلون بين ما يسمونه باللغة التكنيكية ذات الاستخدام العلمي ، او الفكري ، وبين اللغة التي تصلح للاستعمال في التعبير الانفعالي . والحقيقة ان اللغة التي نحن بصددها ، ينبغي ان تقوم على الصيغة التي تدمج الفكر بالانفعال ، لئلا يصبح الشاعر والفنان بأطلاق ، مسوقا الى احتراز ذات المعايير اللغوية التي كان ممكنا وضروريا استخدامها في المراحل التي اخذت فيها المجتمعـات الاوروبية تتململ لتشق قشورها الاجتماعية ، ايذانا بطلوع بيئـات ومجتمعات جديدة ، على نحو ما اشرنا آنفا .

ولهذا ، فان الفنان الجديد ، والشاعر بوجه خاص ، المستخدم اللغة لاغراض الفهم والوعي ، لا مناص له في الاعتقاد هنا بان وسائل تعبيره انما هي الوسائل المتصلة والمعبرة عن الحقيقة الوحيدة التـي يقتنع من اهميتها في موقفه الراهن .

واذا كان لكل نوع من انواع الفعل ، نوع من الانفعال ، ولكل نوع من الانفعال نوع من التعبير ، واذا كانت انواع الفعل الفني ، وانواع الانفعال المتصلة بها ، مبرأة من ضروب الوهم والاجترار ، وما يتصل من بلادة الاحساس والمعرفة ، فان اللغة المستخدمة عندئذ من قبـل الفنان الثوري ، تكون ، لزوما ، مصبوغة بصبغة الفكر ، بوصفها تعبر عن انفعال معين وبوصفها تشير الى شيء وراء الانفعال ، والى فكـرة يكون التعبير عنها شحنتها الانفعالية . ومن هنا يتضح ان صبغ اللغة الجديدة تدريجيا بصبغة الفكر ، وتحولها شيئا فشيئا بواسطة النحو والمنطق الى رمزية علمية ، لا يدل على تبلد الانفعال ، بل على تدرج في الافصاح عن الانفعال والتخصيص فيه . فنحن هنا « لا ننتقل من جو انفعالي الى جو عقلي جاف ، بل ما نحصل عليه هو انفعالات جديـدة ووسائل جديدة للتعبير عنها » (١) وهي قبل كل شيء ، وسائل تعطي الناس والاشياء معنى ، اي « انها تساعد على اعادة خلق الناس والاشياء خلقا جديدا في الارادة والتوق الانسانيين ، بخلق واقع يحققه البشر بالنضال الدائب المستمر » (٢)

وخلاصة القول ، ان الاداء والتعبير الفني ، على النحو الذي بينا ، يشكلان نوعا من استقلالية الفن الذي لا يقوم على الشكل ولا على المحتوى ، بل على اندماج الاثنين معا في بوتقة الاثر الفني ، الذي يكون التعبير فيه استلهاما ، والمحاكاة تجليا .

ذلك ان حياة الفنان في الفن ، مفادها ان يؤثر على العالم . فكل الحضارة والانسانية تتمثل بهذا الجهد من التطابق المستمر والمتبـادل بين الانسان الواعي وبين الطبيعة . ومفهومنا للجمالية لا يبحث فـي اعماقه الا عن حل للنزاع الذي يواجه الانسان بالواقع ويجابهه به ، عن طريق التجاوز . وهذا احد اهم القوى والعوامل المحركة للفن فـي ادائه وتعبيره .

فالتحول الذي يحدثه الفن في الذات ، هو من العمق بحيث يحيل هذه الذات الى موضوع فني يؤثر في الذوق ، وفي الثقافة ، وفـي الحياة ذاتها . الا ان هذا التأثير ينبغي الا يخفي المسائل التي تطرحها مرحلة الانتقال من نظام اجتماعي الى آخر ( من الراسمالية الـى الاشتراكية مثلا ) . كما انه يجب ان يتمثلها ويعيها وعيا كاملا ، لكي يتعامل معها من اجل تدميرها وتجاوزها ، والمشاركة في بناء نظام اجتماعي اكثر عدالة وحرية . وكل اثر فني قائم على اداء وتعبير سليمين من جهة الخواصفات التي اشرنا اليها ، انما هو سلاح من اجل بلوغ هذا النظام الاجتماعي المرتجى ، انه المشاركة الفعلية عندئذ ، في معركة المصير الانساني .

بيروت ـ ميشال سليمان

---

(١) روبن كولنوود : اصول الفن ص ٢٢٧ .
(٢) رئيف خوري : الادب المسؤول ـ دار « الآداب »